مجلة الجامعة الأسمرية: العلوم الشرعية والإنسانية
المجلد (32) العدد الثاني (ديسمبر 2019)

موقف البراجماتية من الأخلاق: عرض ومناقشة

قمر مفتاح الرويمي

قسم الفلسفة وعلم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم، جامعة المرقب، مسلاتة، ليبيا

Email: alruwaymigmr@gmail.com

الملخص

هدف هذا البحث المعنون بـ(موقف البراجماتية من الأخلاق: عرض ومناقشة) إلى بيان أن موقف الفلسفة المعاصرة من الأخلاق ليس موقفاً موضوعياً بقدر ما هو موقف ترتب عليه إلحاق الضرر بالأخلاق النظرية والعملية على السواء، كما يهدف إلى ضرورة إعادة النظر في الأفكار البراجماتية من حيث صحتها وخطئها، واستخدم في هذا البحث منهج العرض والمتابعة للأفكار التي يذكرونها، ثم منهج النقد عند المناقشة، وبالتالي يوجد منهج أصيل، ومنهجان فرعيان يستخدمان متى كانت الفكرة المعروضة تحتاجهما، ومن أهم نتائج البحث: أن إحالة الأخلاق في مصدرها إلى الإنسان يؤكد الجانب السفسطائي الممتد من اليونانيين الأقدمين إلى الفلاسفة المحدثين، ثم دعاة البراجماتية المعاصرين، وبناءً عليه فلم تكن لهم أفكار استقلالية ولا نزعة إبداعية، وأن موقفهم من الإنسان واعتباره خالقاً لإرادته الحرة نتج عنه فوضى أخلاقية، حيث أعلنوا تخلصهم من الأخلاق المطلقة والتزامهم الأخلاق النسبية، فلم يجدوا مكاناً لهم في العقول الراقية، كما أن فكرة العرضية تتسم بالغموض وتنتهي إلى اللامعقول إذا طبقت على الأخلاق العملية، وهذا يؤدي إلى انهيار الفكر الأخلاقي كله.

الكلمات المفتاحية: الكلمات المفتاحية: موقف البرجماتية، مفهوم الأخلاق.

ISSN: 2706-9524 (Print) **ISSN**: 2706-9532 (Online)

المقدمة

لقد أصاب بعض العقول الغرور وبخاصة بعد ظهور العلم التجريبي وما ترتب عليه من نتائج اعتقد البعض أنها تُغني عن الإله، وكلٌ سلك طريقاً ظنها تؤدي به إلى الغاية المنشودة، ويعتبر العصر الحديث وما بعده من أكثر العصور التي وقع فيها هذا الانفلات في العقيدة والقيم والأخلاق، ومن ثم اخترت أن يكون موضوع هذا البحث هو (موقف البراجماتية من الأخلاق) وذلك يقتضي بيان الخطوات التي سلكتها في هذا البحث حتى وصل إلى غايته.

أسباب اختيار الموضوع

1. أن أصحاب الفكر البراجماتي يغيرون من تسمياتهم حيناً بعد آخر، بحيث يصعب ضبط مذهبهم أو ضبط الأسماء التي يسيرون خلفها، فأحياناً يسمون أنفسهم أصحاب الفكر العملي، وأحياناً يسمون أنفسهم أصحاب الفلسفة البراجماتية، وكان وليم جيمس يقول إنني أقدم البراجماتية ذات الاسم الغريب كفلسفة في وسعها أن تشبع كلا نوعي المطالب، وأن تظل ديانة كالمذاهب العقلية. وأحياناً يطلقون على أنفسهم المدرسة أو الحركة أو مذهب المنفعة وذلك يستلزم معالجة الموقف من الناحية القيمية والأخلاقية على السواء.
2. أن المذهب البراجماتي لم يقف عند حد التسمية بل تجاوزها إلى جوانب أخرى أدلى فيها أصحابه بأكثر من دلو، فتارةً يتحدثون عن علم النفس كالحال مع وليم جيمس، وأحياناً يتحدثون عن المنطق ومشكلاته كالحال مع بيرس، وربما تقبلوا موقفاً آخر اعتبروه هو الأكثر معايشه والأقرب في الوصول إلى الغاية كالحال مع جون دوي. وهذه مسائل تحتاج ضبطاً بحيث لا يقع الاغترار بحبائلهم.

3. أن المبادئ العامة التي اتفقوا عليها ومنها مبدأ العمل ربما ظن الكثيرون أنهم يريدون العمل بوجه عام، غير أنهم استخدموا العنوان ووضعوا فيه ما شاءوا، فكان من الضروري بيان المسألة.
4. أنهم يتحدثون عن التجربة الدينية ويذكرون خواصها، وهم في ذات الوقت منفصلون عنها انفصالاً تاماً، أما لماذا فلأنهم اعتبروا الدين مجرد شعور داخلي كأنه من الحالات المرضية فدفعوا الناس لهجر الدين والخروج عليه.
5. اعتبروا مطابقة الواقع معيار الحقيقة، وفي ذات الوقت لم يقدموا مفهوماً محدداً لكل من الواقع والحقيقة، فكان من الضروري رعاية تلك المسائل ومراجعتها حتى يستبين وجه الصواب فيما يذكرونه.
6. أنكروا وجود المطلق على الناحية المشروعة، واعتبروا المطلق فكرة تساوي الله اللانهائي، وبذلك جعلوا المطلق أعلى من الله في كل ما يزعمونه، وقد ترتب على ذلك الكثير من جوانب الإلحاد، فكان من الضروري دراسة موقفهم من الأخلاق حتى ينكشف أمرهم على ناحية معرفية يمكن أن يستفيد منها الباحث المنصف، ويبتعد عن جوانب الشر التي تفرضها المبادئ البراجماتية.
7. أنهم وقفوا من القيم والأخلاق موقفاً غريباً من حيث إن القيم لها مراكز ثابتة في التوجهات العلمية، فإذا تم إبعادها فقد وقعت الإساءة ولم تتقدم المعارف خطوة صحيحة، وكذلك موقفهم من الأخلاق حيث جعلوها قسمين أحدهما ربطوه بالإرادة الذاتية للفرد فصار الفرد هو صاحب الأخلاق وتوسعوا في فكرة الإرادة الحرة علهم يصيبون هدفاً.
8. أن فكرة العلاقات الخارجية القائمة في أجزاء العالم من وجهة نظرهم قد أدت إلى أنواع كثيرة من أوجه الاختلال ترتب عليها أن تحول الإنسان والحيوان والجماد والنبات إلى كائنات متنازعة ليس لها غاية أو هدف، ومن هنا كان من الضروري دراسة ذلك الموضوع على الناحية المعرفية المتسمة بالموضوعية.

منهج الدراسة

سأحاول في هذا البحث اتباع منهج العرض للأفكار التي يذكرونها وصحة نسبتها إليهم ثم مناقشتها على الجوانب المعرفية التي يمكنني الوصول إليها.

ولأن منهج العرض والمناقشة يظهر فيه العديد من الصور التي صارت مناهج مستقلة فإني سألتزم منهج المتابعة في عرض الفكرة حتى تستوي على سوقها طبقاً لما وجدته في المؤلفات التي صحت نسبتها إليهم، ثم منهج الملاحقة عند المناقشة. وبالتالي يوجد منهج أصيل ومنهجان فرعيان أستخدمهما متى رأيت الفكرة المعروضة تحتاجهما.

المشكلات البحثية

المشكلة الأولى: ظهور العديد من الأفكار التي تبناها الفلاسفة المحدثون والمعاصرون على السواء وصارت تجد رجع صدى لها في كلٍ من الغرب والشرق على السواء؛ لأنها لم تقتصر على مكانٍ بعينه وخاصةً في عصر العولمة الذي انتشرت فيه الآراء الإلحادية على أوسع نطاق.

المشكلة الثانية: وجود مصادر دفع قوية وتغذية متواصلة لتلك الأفكار من النواحي الإعلامية وغيرها، وهو ما يؤكد أن هذه الأعمال القصدية يراد منها هدم الدين والقيم والقفز فوق الأخلاق، ولذلك تمثل تلك المشكلة ضغطاً أدبياً على الباحث المعرفي.

المشكلة الثالثة: اقتناع العديد من أبناء الشرق وخاصةً المسلمين بصحة تلك الأفكار واعتناقها والدفاع عنها، فصار الإنسان المسلم، بل العالم الإنساني، يدور في فلك من الأفكار منزوعة الهوية لا قيمة لها من الناحية العلمية، ويتم اعتبارها أصولاً عامة يجب الإبقاء عليها والتمسك بها.

المشكلة الرابعة: ضغط بعض الباحثين المعاصرين بعد المحدثين على الدين والقيم والأخلاق الصحيحة بُغية صرف الناس عن تلك الحقائق، ولا مانع لديهم أن يعيش العالم في اضطراب متواصل وقلق لا ينتهي.

الأهداف والغايات

1. ضرورة إعادة النظر في الأفكار البراجماتية من حيث صحتها وخطئها، أما الغاية فهي بيان خطر التخلي عن المعارف الصحيحة والانخراط في المعارف الفاسدة.
2. حث الباحث المعرفي على النظر فيما يعرض عليه؛ فلا يأخذ مأخذ التسليم، ولا يقابله مقابلة المنكر. أما الغاية فهي تناول تلك الأفكار بموضوعية حتى إذا دارت القضية دورتها بان أن الباحث المعرفي ملتزم أصول المذهب؛ فلا يتجنى على أحد بقدر ما ينمي المعارف الصحيحة.
3. أن فكرة العولمة بقدر ما أضافت إسراع وتيرة البحث إلا أنها أوقعت الكثيرين في أخطاء عديدة، والغاية بيان أن تلك الأخطاء إذا استمرت تحولت إلى أخطاء مدمرة لن ينجو منها شعب أو مفكر.
4. أن موقف الفلسفة المعاصرة من الأخلاق ليس موقفاً موضوعياً بقدر ما هو موقف ترتب عليه إلحاق العديد من الأضرار بالأخلاق النظرية والعملية على السواء. أما الغاية فهي التأكيد على أن قوام الأخلاق في الممارسة العملية من الاستقامة والقصد المشروع والغاية الصحيحة، أما غير ذلك فلا يمكن الالتفات إليه.
5. أن البراجماتيين في تناولهم للأخلاق نزعوها من الأصول التي قامت عليها والمصادر الأساسية التي استقرت معها فصارت الأخلاق منزوعة الأصل. أما الغاية فهي ضرورة إعادة بناء الأخلاق على الأصول التي نهضت فيها والمعالجات التي لابد من الرجوع إليها ففي الرجوع إلى الحق فضيلة.

مكونات الدراسة

يتكون هذا البحث بعد المقدمة من ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول: التعريف بالبراجماتية وأبرز رجالها.

المبحث الثاني: مفهوم الأخلاق وتقسيماتها.

المبحث الثالث: المشكلات التي تبنتها البراجماتية.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج، أبرز التوصيات، أهم المقترحات.

المبحث الأول: التعريف بالبراجماتية وأبرز رجالها

من المناسب أن يكون الحديث عن موقف البراجماتية من الأخلاق مسبوقاً بأمرين: أحدهما يتعلق بالتعريف لها، وثانيهما يتعلق بأبرز رجالها، فإذا أمكن معرفة هذين الأمرين نتج عنهما الوقوف على موقفهم من الأخلاق. وسأتناول ذلك بإيجاز تقتضيه الضرورة على النحو الآتي:

أولاً/ التعريف بها:

ذهب الباحثون في التعريف بالبراجماتية مذاهب ثلاثة:

المذهب الأول: أنها الطريقة التي تتبع في تقرير فكرةٍ بذاتها حتى تبلغ لدى أصحابها مبلغ الاعتقاد، يقول وليم جيمس « الذي يجب على الباحث العلمي النزيه أو الموضوعي أن الإخلال بالتعريف يعد انتقاصاً من شأن المرء نفسه»[1]، وبناءً عليه اعتقد البراجماتيون أنها مشتقة من كلمتين هما "مذهب وعمل" وهما من نفس الكلمة اليونانية التي يؤخذ منها مزاولة عملٍ معاً[2].

المذهب الثاني: يعتقد أصحابه أن البراجماتية تُعنى بالمشكلات الفلسفية، ثم تضيف إليها ما بلغه العقليون والتجريبيون، وتصوغ ذلك صياغة جديدة كالقصدية والتبرير والإرادة الحرة[3]، وهذا المذهب يؤكد على ضرورة وهي قيام البراجماتية على الحركة الفكرية المتواصلة من خلال عملية توليف بين أفكار سابقة، وهو دور تلك الحركة والعامل المؤثر فيها[4].

المذهب الثالث: وهم الذين يذهبون إلى أن البراجماتية مذهب منفعة أو فائدة أو هما معاً. يقول فوكر «غدت الألفاظ والتجربة لدى البراجماتية صورة

---

[1] سلطان، محمود حسن (1995)، البراجماتية، طبعة دار بيروت، ص: 63-64.

[2] جيمس، وليم (د.ت)، البراجماتية، تحقيق: محمد علي العريان، طبعة القاهرة، ص: 64.

[3] فوزي، محمود (1985). المذهب البراجماتي نشأته وتطوره، طبعة القاهرة، ص: 71.

[4] هيث، إدوارد (1974). زعماء الفلسفة البراجماتية، تحقيق: هناء فوزي، طبعة بيروت، ص: 145.

واحدة تحمل الاستهلاك الطاقي دون أن تقدم له عوضاً، ولما كان البراجماتيون يرفضون فكرة الاستهلاك في غير فائدة فقد تبنوا آراء اعتقدوا نفعها وأطلقوا على أنفسهم أصحاب المذهب النفعي»[1].

على أن التعريف بالبراجماتية وعلاقتها بالمنفعة تبناه الكثيرون، ومنهم جون سوكر الذي يقول «إن مذهب الذرائع من أكثر التسميات التصاقاً بالفكر البراجماتي، إنهم صاغوا هذه الأفكار من خلال جوانب عديدة أدت في النهاية إلى وجود البراجماتية، أو أنها قامت عليها»[2] فالعبرة بالأسباب والوسائل قبل الأهداف والغايات والنتائج.

ويمكن القول بأن التعريفات التي تناولت البراجماتية يمكن أن يضاف إليها تعريفات أخرى منها ما يتعلق بالموضوع ومنها ما يتعلق بالغاية يدل عليه أن ما يتعلق بالموضوع ذهب إليه الكثيرون حين عرفوا البراجماتية بأنها « التي تتناول الأفكار الرأسية الواقعة في نطاق المدركات الحسية والحكم عليها»[3].

ومن التعريف بالغاية قولهم « إن البراجماتية اتجاه فكري قائم لإبعاد شبح القضايا الاحتمالية من طريق الباحث الدقيق وتعويضها بالنتائج اليقينية التي تفيد في تقدم العلوم وتنقية المعارف»[4].

حقيقةً هناك تعريفات للقائمين عليها المعجبين لها، وأخرى للقادحين فيها، وهذا لا يهمني في قليلٍ ولا كثير المهم أنها فلسفة حديثة ومعاصرة أقامت ثورة على الثوابت الفكرية، وطغت في القواعد العامة، كما أحدثت هزة عنيفة في القيم الثابتة، ونالت من القيم الأخلاقية والمعتقدات الدينية، وأسهمت في نشر الإلحاد المعاصر على جوانب شتى. وإذا كان مطلعها قد صاحب نهاية القرن التاسع

[1] فوكر، جورج ساندر (1993)، المذهب الفلسفية في أمريكا الحديثة، تحقيق: حنان فوزي، طبعة بيروت، ص: 71.

[2] فوكر، جورج ساندر، مرجع سبق ذكره، ص: 73.

[3] هيفر، جورج (د.ت)، الفلسفة الحديثة والمعاصرة من ديكارت إلى وليم جيمس، تحقيق: وفاء صبري، دار المفكر بيروت، ص: 113.

[4] الزعفراني، فيصل (1995)، البراجماتية من منظور براجماتي، دار الوزان، ص: 53.

عشر واستمر أداؤها في القرن العشرين وما بعده، فإنها تكون أفكارًا حديثة معاصرة في ذات الوقت.

ثانياً/ أبرز رجالها:

المعلوم أن كل نزعة فلسفية أو اتجاه فكري يؤسس قواعده جملةً من الأفراد يتشاركون فيما بينهم لبلوغ تلك الغاية، والبيّن أن البراجماتية قد أقامها مجموعة من الفلاسفة المعاصرين، وهذا يستلزم نبذة مركزة عن كل واحدٍ منهم، وسيكون ذلك على النحو الآتي:

أ) تشارلز ساندرز بيرس (1839-1914م):

هو أحد الفلاسفة الأمريكان، ولد في مقاطعات تكساس مارس 1839م من أسرة متواضعة الحال والثقافة، التحق بالدراسة فأظهر جانباً من العناية ببعض المسائل التي تعرض له، فجمع بين المعرفة والمهن والحرف، بعضها بإرادته الحرة وبعضها أرغم عليها[1].

التحق بجامعة هارفارد سنة 1863م تخرج فيها، ورأى أن من واجبه البحث عن لقمة العيش فعمل مدرساً للمنطق، كما قام بإعداد بحوث ومقالات نشرها في المجلات التي كانت تصدر آنذاك، وصار يقتات منها. كما تأثر بالأفكار الكانطية في طريقة البحث، واشتغل بعلم التطور مركزًا على الجانب الإحيائي، وانتهى إلى آراء قريبة من رأي دارون حتى اعتقد الكثيرون أن آراء بيرس هي رجع صدى لأفكار دارون، وليس لبيرس منها سوى النسخة الضوئية[2].

استطاع بيرس مراسلة العديد من المجلات العلمية فكسب احترامها، وبخاصةٍ أن أغلب مقالاته تتسم بروحٍ جادة وتلتزم بطريقة عملية تجاوز فيها الفكر النظري والواقع العلمي التجريبي، كما استطاع أن يؤلف مجموعة من الكتب منها دراسات في المنطق، ومنها المنطق الكبير، وكتاب في الحياة، ثم

[1] زومو، إسكندر (1987)، الحركة البراجماتية والتطورات العلمية، دار الصفا، القاهرة، ص: 19.

[2] مصطفى، عدلي محمد (1998)، سياحة في الفلسفة البراجماتية، دار الجبل، بيروت، ص: 127.

أعاد نشر عدة مقالات ذات موضوع واحد تحت عنوان "كيف نجعل أفكارنا واضحة"، وفي آخر أيامه نشر كتابين أحدهما حول فضيلة المذهب البراجماتي، والثاني حول الطريقة البراجماتية ووقوعها في دائرة المنازعات الميتافيزيقية، وفي عام 1914م كانت نهاية الرجل قد خطت آخر مرحلة لها، فودعته الدنيا غير آسفة عليه لكن باتت أفكاره ذات تأثير فاعل في الحركة البراجماتية.

ب) وليم هنري جيمس (1842-1910م):

يمكن القول بأن جيمس كان يعبر بصوته عن لغة عصره، ويرسم بلغته ظروف ذلك العصر، ولد بمدينة نيويورك بأمريكا سنة 1842م، وكانت أسرته تنتظره في لهفة، وعرف عن والده أنه من رجال اللاهوت المحافظ على تعاليم الإنجيل، وكلما نظر إليه في جده بذل المزيد حتى بلغ أعلى درجة من الإعجاب والتقدير.

ألف العديد من الكتب التي حملت وجهة نظره، وسعى إلى إحداث نقلة نوعية في الكثير من الجوانب المعرفية، وكان أول أمره أستاذاً للفسيولوجيا والتشريح بجامعة هارفارد، ثم عين أستاذاً لعلم النفس، وكان له منهج بحثي استطاع إلزام نفسه به، وفي سنة 1902م عين أستاذًا غير متفرغ للفلسفة، فأدخل للجامعة منهجًا جديدًا للدراسة، وهو أول منهج في أمريكا يهتم بدراسة الفسيولوجيا[1].

استطاع جيمس أن يقدم العديد من المؤلفات العلمية منها مبادئ علم النفس الذي حمل آراءه، وقد اتسم منهجه في الكتاب بالتحليل الدقيق والفكر العميق بالإضافة إلى الأسلوب الأخاذ[2]، كما قام بنشر كتاب "كون متكثر" تحدث فيه عن المسألة الميتافيزيقية واستخدم المنهج الجامع بين الميتافيزيقا والفيزيقا، ويعتبر من أكثر الذين خلطوا المباحث الميتافيزيقية بالفيزيائية[3]. كما ظهرت له مؤلفات منها "موجز علم النفس" و "إرادة الاعتقاد" وأيضاً "أنحاء التجربة الدينية"،

---

[1] كرم، يوسف (1979)، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، مصر، ص: 416.

[2] ديوكان، اتشارلز (1998)، الفلسفة في القرن العشرين، تحقيق: عادل فوزي، بيروت، ص: 175.

[3] زاهر، رفقي (1983)، أضواء على الفلسفة الحديثة والمعاصرة، الدار المحمدية، القاهرة، ص: 61.

حيث كان هذا الكتاب بمثابة صدمة قاسية هزت أرجاء المجتمع؛ لأنه اعتبر الدين من المسائل الشخصية التي تقوم على الشعور الديني الذاتي فوسع بذلك دائرة الإلحاد.

كما نشر كتابه "البراجماتزم"، وأقام منهجه فيه على ضرورة التزام العلاقات القائمة بين الأفكار، حيث اعتقد أن كل فكرة ترتبط قيمتها بالآثار العملية المترتبة عليها.

أجل لقد نشر كتابه "كون متكثر"، كما نشرت له كتب بعد وفاته تحت مجموعتين؛ الأولى بعنوان "بعض المسائل الفلسفية"، والثانية بعنوان "محاولات في التجربة البحثية"[1].

على كلٍ ترك جيمس أثراً بالغاً في الفلسفة البراجماتية، وانتهت حياته بنوبة قلبية في أغسطس 1910م بعد أن وضع جانباً من القواعد التي قام عليها المذهب البراجماتي، وقد نعاه صديقه منتقداً إذ يقول: « لم يكن جيمس راغباً في الحياة»[2]، واستدل عليه بأنه الذي دفع بنفسه إلى الهاوية، وحول مجرى الأحداث من النظرة الميتافيزيقية إلى أخرى غير معروفة الهوية ولا محددة الهدف.

ج) جون ديوي (1859-1952م):

يعتبر ديوي من أكثر الفلاسفة المعاصرين شيوعاً بحيث لا يقل في هذا الجانب عن كلٍّ من بيرس وجيمس. ولد في ولاية فيرمونت بأمريكا ونشأ في ظروف متباينة لم تمكنه من الاستمرار في الدراسة على نمط واحد، وسعى لدراسة الآراء التي كان يقول بها هيجل وزميله شيلنج بالنسبة للدراسات اللاهوتية العلمية والعملية، وقد أعجب بما تركه هيجل وزميله، وبناءً عليه استطاع أن ينظم إلى تراس بيران، وتناقل مع زملائه أفكار كوندياك الفرنسي، ويعتبر ديوي من الجيل الذي ثقف نفسه بنفسه[3]، حيث استطاع دوي أن يمارس أنواعاً كثيرة من العمل فاستقر أمره في التعيين بوظيفة أستاذ للمنطق التجريبي وعلم الطبيعة،

[1] ميدن، جورج (1975)، الكون وحركة الحياة، تحقيق: هناء فوزي، طبعة القاهرة، ص: 141.

[2] فيشر، جورج (1998)، الفكر الفلسفي الحديث، تحقيق: عادل آغا، طبعة بيروت، ص: 133.

[3] فيشر، جورج، المرجع السابق، ص: 85.

وكان منهجه يعبر عن محاولة لفهم الواقع وكيفية إحداث نقلة نوعية تهدف إلى إعداد جيل يعتمد على المنهج العلمي، ولذا لما جاوز الستين عُيين أستاذاً متفرغاً مهمته الإشراف على الرسائل العلمية، ومستشاراً منهجياً لإدارة الجامعة[1].

أجل استطاع ديوي أن يكون مجموعة من الآراء التي تنسب إليه، حيث كتب في الميتافيزيقا، وفلسفة العلوم، والمنطق، وعلم النفس، والجمال، كما كتب في الدين والآداب، وبانضمامه إلى البراجماتية قويت شوكتهم واتسعت مساحتهم[2].

غير خافٍ أن ديوي نشر مجموعة من المؤلفات منها "دراسات في النظرية المنطقية" قدم فيها منهجاً لفض الاشتباك بين كون المنطق مشكلة نظرية وبين الجانب العملي التجريبي، ثم نشر كتابه "كيف نفكر" عالج فيه مشكلة نفسية منطقية اجتماعية[3].

كذلك نشر كتابه "محاولات في المنطق التجريبي" أقام منهجه فيه على تناول المنطق الاستقرائي، وتحويل الأفكار من الصورة اللفظية إلى الحقيقة الواقعية.

وقبل وفاته نشر كتاب "طلب اليقين" وضع فيه منهجاً اتسم بالبحث الفلسفي، وحاول أن يبتعد عن القلق المعرفي، إنه يسعى إلى اليقين وقد بعُد عنه عدداً من السنين. وبعد وفاته ظهرت له مجموعتان قام بنشرهما تلاميذه عبر فيها عن رأيه المتعلق بالبراجماتية، ويؤكد أنه يعتنق المذهب ويعمل مع العقلية الأمريكية المتجهة إلى العمل والحرية[4]. كذلك نشرت له مجموعة مؤلفات منها كتابه"أصل التعارض" أقام منهجه فيه على بحث العلاقة بين المادية والمثالية، وانتهى إلى أن المثالية تعتبر المعرفة تأملًا في المعاني المجردة، والعلم الطبيعي

---

[1] برجسون، هنري (1988)، مقدمة البراجماتية، تحقيق: عادل فوزي، مراجعة: فوزية حسن، طبعة القاهرة، ص: 9.

[2] نصر، فوزي (1983) ديوي وأفكاره الفلسفية، طبعة القاهرة، ص: 93. وقد حاول المؤلف في كل أفكاره أن يلتمس الأعذار ويبرر المشكلات التي تعرض لها ديوي.

[3] هيفر، إدوارد (1987)، الفلسفة الحديثة والمعاصرة، تحقيق: هناء خالد، طبعة بيروت، ص: 144.

[4] كرم، يوسف، مرجع سبق ذكره، ص: 425.

مجرد تركيب عقلي بحيث ترد المادة إلى الروح دون أن تتعرض لأسبابها أو كيفياتها[1].

لقد انتهت حياة ديوي على ناحية غير معروفة بعد حياة حافلة بالترحال والبحث، وهو في جميع مراحله معتقد صحة الأفكار البراجماتية مدافع عنها؛ بل هو أحد الأعمدة الثلاثة الأساسية التي قام عليها المذهب البراجماتي، وأنهم جميعاً اشتركوا في ضرورة تحويل الأفكار من الصور المجردة إلى واقع عملي مؤثر، وأن الفكر الذي لا يقبل التجريب لا قيمة له، وأن الفكر الذي يعجز عن إثبات نفسه داخل هذه الدورة الحياتية العملية لا يمكن الاعتقاد في صحته.

لقد أنكر هؤلاء العديد من المعتقدات الدينية، وانطلقوا يشككون في كل شيء وعلى أكتافهم قامت الفلسفة البراجماتية التي تشمل الفلسفة المعاصرة وآثارها السلبية.

المبحث الثاني: مفهوم الأخلاق وتقسيماتها

الأخلاق الأساسية هي الصور المصغرة القائمة في الفطرة، وهي تستقبل الأفكار والمبادئ فتعيد صياغتها على ناحية عملية، وتتمثل فيها العلاقة الرابطة بين العقيدة والتكاليف على ناحية صحيحة، ولذا فالأخلاق هي المعيار الذي من خلاله تبدو السلوكيات الإيجابية والسلبية، وهي المعيار الذي يحدد مدى الانضباط بين الإنسان والعقيدة الدينية. وتعرف الأخلاق بأنها حالة من حالات النفس الإنسانية التي تظهر آثارها على السلوك الإنسانية[2].

[1] أبو النصر، فوزي و الخياط، محمود (1998)، الفلسفة المعاصرة ودورها في المعرفة، دار المنتزه، القاهرة، ص: 43-44.

[2] صقر، محمود (1985)، الأخلاق بين النظرية والتطبيق، طبعة القاهرة، ص: 73-74.

وإذا كان المحدثون يرون أنها مظهر للسلوك فإن الأقدمين قد نظروا إليها تلك النظرة، فابن مسكويه مثلاً يذهب إلى أن « الخُلق حالٌ للنفس داعياً لها إلى أفعالها من غير فكرٍ ولا روية»[1].

وبناءً عليه انقسمت الدراسات حول الأخلاق إلى قسمين أحدهما الذين اعتبرت لديهم صفة وهم الحكماء الذين يقولون «إن الخلق صفة راسخة للنفس كالكتابة في الابتداء وبعد الرسوم تسمى ملكة»[2]. أما الفلسفة المعاصرة فتقرر أن الأخلاق « سلوك الفرد الذي يتفق مع ذات مجتمعه وثقافته، وتظهر معه تقاليده بحيث يكون مرادفاً لمفهوم المواطن الصالح الذي يطيع قوانين بلاده، ويتفق سلوكه مع قيم مجتمعه»[3]. تلك المدرسة التي اعتبرت الأخلاق منحصرة في السلوك الشخصي الذي يشمل المجتمع أيضاً ربما كانت محاولة جانبها الكثير من التوفيق، أما لماذا فلأن الكثير من الدراسات الأخلاقية لا ترى أنها سلوك أو حال، وإنما هي شعور داخلي يعبر عنه سلوك خارجي إرادي، ولذلك ذهبت المدارس الأخلاقية في الفلسفة المعاصرة إلى أن الخلق هو فعل الجميل أو القبيح أو القدرة عليهما أو التمييز بينهما[4].

على كلٍ فإن المتجهين لدراسة الأخلاق قديماً ينقسمون كما ذكرت إلى قسمين أحدهما يذهب إلى أن الأخلاق فطرية ويرون أن الأخلاق المستقيمة فطرية لأنها لا تقبل التعديل أو التغيير أو التطوير كلون بشرة الجسم، وإذا حاول تعديلها فإنما يمارس أمراً تكون فيه هلكته.

نعم إن أصحاب هذا الاتجاه ربما اعتقدوا بعض الظواهر التي لم تدارسها وقالوا بها واستدلوا عليها بأدلة ثلاثة: الدليل الأول/ أن الخُلق كالخلق من لون

---

[1] ابن مسكويه (د.ت)، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تحقيق: ابن الخطيب، المطبعة العصرية، القاهرة، ص: 41.

[2] رجب، منصور علي (د.ت)، تأملات في فلسفة الأخلاق، طبعة القاهرة، ص: 90-91.

[3] إمام، إمام عبد الفتاح (1978)، فلسفة الأخلاق، طبعة القاهرة، ص: 10.

[4] النعماني، علي محمد (1986)، المذاهب الأخلاقية، مطبعة السعد، القاهرة، ص: 38-39.

البشرة وطول القامة وكمال الأطراف[1]. ومادامت هذه الملامح الجسدية الخلقية لا يمكن التعديل فيها فإن الخُلق هو الآخر لا يقبل التعديل بناءً على المنظومة الجينية.

الدليل الثاني ما يتعلق بالحِكم وهو ما نقله المؤرخون عن الأعرابي القديم أنه وجد ذئباً صغيراً قد ولدته أمه وماتت من فورها، فأخذه وأرضعه من لبن شاته، وظل ينمو بين الأغنام ويحاكيها حتى لم يكن يُعرف من بينها، وبعد فترة خلا الذئب بالشاة فتحركت فيه طبيعته الافتراسية، فبقر الشاة، وأخذ في أكلها فأتاه الأعرابي وقال كلمته المأثورة[2]:

بقرت شويهتي وفجعت قلبي ... وأنت لشاتنا ولدٌ ربيبُ
غُذيت بدرِها ورُبيت فينا ... من أنباك أن أباك ذيبُ
إذا كان الطباع طباع سوءٍ ... فلا أدب يفيد ولا أديب

ومن هنا قالوا إن الأخلاق جبلية قائمة في النفس، وإلا كيف عرف الذئب أن أباه كان ذئباً، وهو لم يتعامل معه.

الدليل الثالث انطباق الصورة الظاهرة على الباطن، ومعناه أن الخَلق هو الصورة الظاهرة، والخُلق هو الصورة الباطنة، ومادامت الصورة الظاهرة لا يمكن التعديل فيها فإن الباطنة لا يمكن التعديل فيها، وبناءً عليه قالوا إن الأخلاق فطرية لا تقبل التعديل.

الفريق الثاني: وهم الذين يذهبون إلى أن الأخلاق ليست جبلية، وإنما هي كسبية تقبل الزيادة إليها كما تقبل النقصان منها وتصلح للتعديل فيها بحيث يكون مدركاً لكافة الأبعاد الخلقية[3].

ويذهب أصحاب الفلسفة المعاصرة إلى أن الأخلاق جميعها تقع بالاكتساب لكنها في ذات الوقت تدعو إلى الكمال الخلقي عندما يكون المرء

---

[1] هذه الجوانب قد تتوفر في دين من الأجيال لكنها قد لا تتوفر في أجيال أخرى بناءً على قاعدة إحيائية قيامها في المتنحي والسائد في المنظومة الجينية.

[2] الغزالي، محمد (2007)، تأملات غزالية في الأخلاق النظرية، مطبعة المهندس بالقاهرة، ص: 30.

[3] مزرعة، محمود محمد (1978)، دراسات في علم الأخلاق، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ص: 11.

طالباً ذلك، مستندين في هذا إلى محاورة أفلاطون التي تقول « لابد من المبادئ الأولى للأخلاق العدل والظلم، الجميل والقبيح، الخير والشر»[1]. ويؤكد أن الإنسان الكامل هو الذي تكون أخلاقه كاملة وأن الشرير الناقص هو الذي تكون أخلاقه شريرة.

ويذهب الفلاسفة المعاصرون إلى أن الأخلاق صناعة فردية، بمعنى أن الإنسان يملكها من خلال الإرادة الحرة والقصد إلى الفعل بغض النظر عن النتائج المترتبة عليه[2].

على كلٍ ظهر فريق ثالث يرى أصحابه أن الأخلاق ليست كلها فطرية وليست كلها مكتسبة، وإنما بعضها فطري وبعضها مكتسب، وكان هيدل يقول « إن التجارب الحياتية علمتني أن ما لا أستطيع عليه الوقوف بنفسي يمكنني الرجوع إليه من خلال الحياة التي أنا واحدٌ من المساهمين فيها، وإذا كنت قد ورثت عن أهلي شيئاً فإنه يمكنني أن أعدل وأضيف إليها وأحذف منها، لقد وطنت نفسي على هذه وتلك»[3].

أجل إن هذا الفريق الثالث يعتبر من أكثر الآراء قوة لأنه قام على جوانب تدعمه منها:

1) الممارسة: حيث يعتقد أصحاب هذا الاتجاه أن الإنسان الطبعي صاحب الخلق السليم يمكنه أن يمارس الفضائل العملية حتى من غير معرفة أنها فضائل، وإنما مرجعها إلى أصل المزاج الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب، ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدرج[4].

---

[1] أفلاطون (1945)، محاورات أفلاطون: أوطيفرون، تحقيق: زكي نجيب محمود، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ص: 25-26.

[2] سليمان، حسن محمود (1993)، الأخلاق النظرية وموقف الفلسفة المعاصرة منها، طبعة القاهرة، ص: 81-82.

[3] هيدل، جورج (1985)، الفكر الفلسفي والجوانب الأخلاقية، تحقيق: هناء ظافر، ص: 41.

[4] عزب، شوكت محمد (1998)، الأخلاق في المنظور الفلسفي، مكتبة المتنبي، القاهرة، ص: 93.

2) الواقع المشاهد: ومعناه أن كل إنسان يدرك في واقعه الطبعي أنه مطبوع على قبول الخُلق، ثم تأتي عملية التأكيد عليها عن طريق التأديب والاعتبار بجانب الاحتكاك المباشر وهذا كافٍ. يقول الدكتور محمد عمران « إن القول الجامع هو اعتبار الأخلاق قاسماً مشتركاً بين الجبلية والاكتساب، والعقل الواعي لا ينكر شيئاً من ذلك»[1]، ويرى أيضاً أن الفلسفة المعاصرة لم يكن أصحابها على صواب حين تبنوا فكرة الإرادة الحرة واعتبار الإنسان هو الفاعل الوحيد بشأنها.

أجل إن المذاهب الفلسفية بشأن قسمة الأخلاق إلى نظرية وعملية، وقسمتها مرة أخرى إلى خيرة وشريرة لا يناقض كونها فطرية أو مكتسبة، كما لا يمانع أن تكون جامعة بين الفطرية والمكتسبة، ومن ثم فإن الرأي الذي أميل إليه هو قدرة الإنسان على أن يكون صاحب خلق سليم أو صاحب خلق فاسد، أما لماذا فلأن قاعدة الإلزام الأخلاقي قائمة على الثبات وعدم الانفصال، ثم القدرة على ما يجب الوفاء به، ومن هنا كان الإلزام الخلقي بمثابة شعور داخلي يستوجب القيام بعملٍ ما أو الانصراف عنه من حيث إنه منبعث من الضمير الإنساني ماراً بالوجدان المعبأ بالقيم منصرف إلى ما يرتبط بالمسؤولية الخلقية، ومن هنا كان اهتمام الفلاسفة الأخلاقيين بقاعدة الإلزام الخلقي التي قام عليها علم الأخلاق.

ويرى أحمد أمين أن الإلزام هو العمل الأخلاقي الذي يبعث الوجدان على الإتيان به[2].

غير خافٍ أن قاعدة الأخلاق النظرية لها ارتباط بالأخلاق العملية، وكلٌ منهما له مدخل من ناحية الأخلاق الفلسفية، فما هو موقف الفلاسفة المعاصرين من الأخلاق وبخاصةٍ فلاسفة البراجماتية؟

[1] عمران، محمد (1986)، الفلسفة المعاصرة وموقفها من الأخلاق، طبعة القاهرة، ص: 73-74.

[2] أمين، أحمد، كتاب الأخلاق، طبعة القاهرة، ص: 143. وانظر: صابر، فرج (1998)، الأخلاق وعلاقتها بالفلسفة، المكتبة العصرية، بيروت، ص: 53.

المبحث الثالث: المشكلات التي تبنتها البراجماتية

سلف الحديث عن أبرز زعماء البراجماتية والتعريف بهم، وكذلك الحديث عن الأخلاق وتقسيماتها العامة وما يدور فيها بين الفطرية والمكتسبة وغيرها. وها أنا ذا أنتقل إلى صلب الفكرة التي أقوم بها، وقد ذهب البراجماتيون إلى جملة من الأفكار تحصنوا بداخلها واختزنوا كل الأخلاق فيها؛ بل اعتبروا الحديث عنها هو الطبيعة العملية التي تجب ممارستها في الجانب الأخلاقي على ناحية برجماتية وتقوم فيما يلي:

أولاً/ فكرة الإرادة الحرة:

ومعناها أن الإرادة الحرة هي التي تصنع الأخلاق الإنسانية الصحيحة، ومرادهم بالإرادة الحرة ما يقع للفرد الواعي[1]. وطبقاً للمنهج الذي اعتمدته فسأقوم بما يلي:

أ) العرض:

اعتقد أصحاب الفكر البراجماتي أن الإنسان يستطيع ممارسة ما يتعلق به من غير ضغط عليه، وبالتالي ففكرة الجبرية أو القدرية لا وجود لها في الميزان الأخلاقي البراجماتي، أما لماذا فلما يلي:

1) أن العالم إما كتلة واحدة أو وحدة مطلقة بناءً على ما يقرره أصحاب المذهب الأوحد الذين يفسرون العالم تفسيراً آلياً على أنه واحد لكن أجزاؤه متعددة إلى حدٍ بعيد، وأصحاب هذا المذهب يرجعون الأصل الذي نشأ عنه العالم إما إلى الماء أو الهواء أو التراب أو النار، ويطلق عليهم أصحاب المذهب الواحدي[2]. وبالتالي فالعالم وحدة مستقلة متماسكة الأطراف بحيث يمكن تسميته بالعالم الواحد المتعدد المتناغم من ناحية

[1] المراد بالفرد الواعي عند الأخلاقيين هو الذي يمارس كل ما يريد بحرية سليمة وعقل مستقيم. انظر: فضل، صبري محمد (1985)، دور الإرادة الحرة في البناء الأخلاقي، دار المشرق، بيروت، ط الأولى، ص: 38-39.

[2] بيري، وليم (1978)، الفكر الفلسفي المعاصر في الميزان، تحقيق: عدلي حسن صابر، دار الجيل، بيروت، ص: 71-72.

الأداء. إذن ففكرة الإرادة الحرة سارية في كل جزء من أجزاء العالم والإنسان جزء من أجزاء هذا العالم[1].

2) أن أجزاء العالم متعددة من ناحية النظر إليها متكاثرة إلى أبعد حد، ففيها تعدد وتباين واختلاف لم ينقطع بجانب أنها فيها كثرة من الأنواع والمظاهر والجزئيات التي تأتي على هذا الجانب، ومع هذا تبدو جميع الأجزاء مرتبطة ارتباطاً يشبه الجسم الواحد به أجزاء كثيرة إلا أنها تأتي تحت اسم الإنسان[2]. وبناءً عليه اعتبر البراجماتيون أن الأخلاق سارية في كل جزء من أجزاء العالم وأطلقوا عليها اسم "نظرية الجسم الإنساني المثال"[3].

3) أن العالم قد يُنظر إليه على أنه متعدد حقيقي، وأن الوحدة الظاهرية الموجودة فيه صورية. وبناءً عليه تكون فيه تعددية حقيقية تتحدث عن نفسها في تعدادات لا تقف عند حد، فالأصول الجمادية غير الإنسانية والنباتية غير الحيوانية؛ بل الذكر غير الأنثى في العالم الإحيائي، وفي الجسم الواحد الإحيائي جملة من الخلايا أبسطها الأحادية التي لا تقبل الانقسام، كما توجد فيها الخلايا الثنائية، وكل واحدة منها تدور فيها الإرادة الحرة، وأغلب البراجماتية يعتقدون أن العالم متعدد ويناهضون فكرة أن العالم واحد، وقد دفعهم ذلك إلى اعتبار الأخلاق عملًا شخصيًا ترتبط به كافة الكائنات الحية ومنها الإنسان[4].

4) كما ذهبوا إلى أن الإرادة الحرة التي تسود الكائنات الموجودة فيها قصور معرفي يحتاج لإصلاح، وبناءً عليه قدحوا في الأخلاق رغم أنهم جعلوا الإرادة الحرة هي المعيار الأول.

---

[1] الخياط، محمود صبري (1998)، فلسفة الأخلاق في الفكر البراجماتي، مكتبة المتنبي، القاهرة، ص: 38-39.

[2] فيشر، ادوارد (1985)، البراجماتية كما قرأت عنها وسمعت، ت: عادل فوزي، دار المنتزه، القاهرة، ص: 71-72.

[3] الغريب أن البراجماتية يتحدثون بلغة العلم التجريبي، فما بالهم هنا نظروا بمنظار عقلي وقلدوا أصحاب الفكر المثالي، ألا يعدُ ذلك خروجاً منهم على القواعد العامة التي وضعوها لأنفسهم؟

[4] جيمس، وليم، البراجماتية، مصدر سبق ذكره، ص: 315.

ب) المناقشة (فكرة الإرادة الحرة):

1) أن فكرة الإرادة الحرة قامت في الأصل على تحمل المسؤولية للفرد الواعي، فكل فعل يصدر عن ذات يجب أن يحاسب عليه ما دامت فكرة الجبرية منتفية والحرية هي العنصر الفاعل، لكن هذا الاتجاه مرفوض باعتقادهم أن الإنسان ابن الطبيعة وأحد أجزائها، فكيف يكون جزءاً منها، وفي ذات الوقت يخرج عنها وهو التناقض عينه، يقول شيفر« إن البراجماتية وضعوا مبادئ ثم تخلوا عنها، ووضعوا قواعد لم يلبثوا أن أطاحوا بها وهو التناقض عينه، فكيف يكون الإنسان صاحب إرادة حرة كاملة ،وهو في نفس الوقت ابن الطبيعة يدور في رحاها»[1].

2) أن البراجماتية عددوا في وجوه الحرية الإنسانية، كما عددوا في الصور والمظاهر المرتبطة بالخير والشر بصورة عفوية، فمظاهره التوحد ووسائله الأفعال الإنسانية في صورها الأولية، وهو خطأ كبير يهدم فكرة الإرادة الحرة من أساسها، يقول شيللر«كان في مقدوري تصور مبدأ الحتمية والجبرية معاً وسيادة ذلك في الكائنات، لكن حينما يتعلق الأمر بالإنسان الذي هو قطب الرحى فإن الأمر يختلف لأن الإقرار بجبرية الإنسان ينافي حرية إرادته، كما ينافي وجود الإنسان نفسه، ولما كان الإنسان هو الكائن الذي يمارس أفعاله بإرادته فإن فكرة الجبر التي نادى بها البراجماتيون تكون بالنسبة له عملة فقدت نصيبها البنكي على الناحية المعرفية»[2].

3) أن فكرة الإرادة الحرة لا تصنع الأخلاق وإنما تحملها فوق طاقتها، لأنها تنتهي بإلغاء القضاء الإلهي والقدر الرباني بالنسبة للأفعال الإنسانية، وهذا من شأنه الاعتقاد بصحة الحتمية والسببية العقلية لا على النحو الذي يتصوره الطبيعيون والتجريبيون، وإنما على ناحية خاصة تأتي مع أصحاب الفكر البراجماتي.

---

[1] شيفر، ادوارد (1995)، قراءات في الفلسفة البراجماتية، تحقيق: حسام طلبة، طبعة بيروت، ص: 13-14.

[2] شيللر، ادوارد (د.ت)، البراجماتية من منظور نفعي، تحقيق: حسن طلبة، دار الجيل، بيروت، ص: 73.

والذي أنتهي إليه أن هؤلاء قد أخطأوا المنهج العلمي الأخلاقي الذي يؤكد ضرورة الالتزام بالقضاء الإلهي وأحكامه، والقدر ومجرياته، فكانوا بذلك بعيدين عن روح البحث العلمي، كما هم أبعد عن قواعد الميزان الأخلاقي السليم.

ثانياً/ العلاقات الخارجية:

ومعناها أن كل كائن مخالف للآخر طبقاً لقانوني الذاتية والغيرية[1]، وسأتناول ما يلي:

أ) عرضها:

1) أن بين أجزاء العالم الذي نعرفه جملة من العلاقات ذات الارتباط الظاهري أو الداخلي، وهي تتغير على الدوام ويقع لها التبدل باستمرار، فلو كانت هذه العلاقات داخلية لكانت جوهرية، وما وقع عليها شيء من التغيير، فالمشكلة واحدة في أن هذه العلاقات مؤسسة على الجانب الظاهري الخارجي. يقول بيرس « من الواضح أن فكرة العلاقات الخارجية عرضية، لا بمعنى أنها غير طويلة كما يفهم الرياضيون، وإنما على المعنى الذي يردده المناطقة الصوريون، وهذه الفرضية أساسية لكل العلاقات، فالعالم يجري نحو غاية كمالية، وكلما بذل مجهوداً انتقل إلى غيره، وبناءً عليه تكون فكرة العلاقات الخارجية ليست كافية في إقامة بناء أخلاقي متين»[2].
2) أن المساحة التي تستقطعها العلاقات الخارجية والتي تتبناها الفلسفة البراجماتية مخالفة لكل القواعد العامة من حيث إنها تمنح الإنسان أكبر قدر من الحرية الذاتية، وتعطيه قدر أكبر في الإرادة حتى ينتهي الأمر

[1] قانون الذاتية هو الذي يقرر أن كل شيء له ذات مستقلة لا يمكن أن تشابهها ذات أخرى ولا أن يقع عليها ما يقع على تلك الذات. انظر: خضر، توفيق، (1985)، قوانين الفكر الأساسية ومدى توظيفها فلسفياً، مكتبة المهند، القاهرة، ص: 73-74. أما قانون الغيرية فمعناه أن كل ذات تغاير الأخرى مغايرة تامة فالخير غير الشر، وهكذا يقع الأمر في قانوني الذاتية والغيرية بالنسبة للعلوم الرياضية والفيزيائية. انظر: قاسم، محمود (1973)، المنطق الحديث ومناهج البحث، دار الكتاب العربي، القاهرة، ص: 213-214.

[2] بيرس، استوارت (د.ت)، البراجماتية والقيم الأخلاقية، تحقيق: ناهد شكري، طبعة القاهرة، ص: 83.

إلى القول بأنه لا جبر في ممارسة الأخلاق، كما لا حتمية في الجوانب الفيزيائية[1].

لقد كان القدماء من الباحثين يعتقدون اعتقاد هؤلاء من البراجماتيين، فلما بان لهم أنها اعتقادات غير صحيحة سارعوا إلى فصل المودة بين الطرفين، وقد ترتب عليه الكثير من الاضطرابات السلوكية والعنف الأدبي.

3) أن فكرة العلاقات الخارجية واحتكامها إلى جملة من العلاقات ذات الارتباط الظاهري، وتغيرها المستمر لا يسمح بإقامة أخلاق ثابتة، وإنما هي أخلاق نسبية، بمعنى أن الفرد هو صاحبها، وهو الذي يستطيع الإبقاء عليها أو التخلص منها[2]. ولا شك أن الذين يتعثرون في إقامة علاقات صحيحة يتعثرون أيضاً في إقامة بناءات أخلاقية.

يقول جيرار «إن الفلسفة البراجماتية وقفت من الأخلاق موقف المتدرب على أعمال السرك وترويض الوحوش، فإذا رأوا أن هذه الفكرة الأخلاقية ذات نزعة مرتبطة بالفائدة أو المنفعة قالوا بها، وإذا رأوا غير ذلك تخلوا عنها وهو شأن الأحرار من أصحاب الفكر الإنساني»[3].

بل إن البراجماتية يصورون أصحاب الأخلاق الراقية تصويراً يفضي إلى القضاء على كل علاقة ذاتية، ويجعل العلاقات الخارجية هي القائمة، وقد أدى بهم ذلك إلى اعتبار الأخلاق قفصاً وضع الإنسان فيه، وضلوا يضربونه بسياط القلق من الصور الشبحية[4]حتى عجز عن مقاومة أدنى

---

[1] فضل، عُدي السيد (1985)، الاتجاه البراجماتي وأثره في قوانين الفكر الأساسية، ط الأولى، دار المهد، ص: 83.

[2] فكرة اعتبار الإنسان هو ممثل العلاقات الخارجية قديمة قال بها السفسطائيون الأقدمون وتبناها الفلاسفة المحدثون، ومنهم مونتاني الذي كان يقول إني أشك في أني أشك وسأضل أشك ولن أدع الأرض الرخوة إلى الصلصال. انظر: الطويل، توفيق (1979)، أسس الفلسفة، دار النهضة العربية، القاهرة، ص: 290.

[3] جيرار، ادوارد (1993)، البراجماتية والمذاهب الأخلاقية: دراسة نقدية، تحقيق: عليا صالح، طبعة بيروت، ص: 83.

[4] فكرة الصور الشبحية ترتد إلى الأساطير التي عاشت في عقول الكثيرين، ونمت كأنها جزء من الثقافة المجتمعية، وهي غير الصور الشبحية التي قال بها اليونانيون ومنهم أفلاطون، وقال بها الفلاسفة الإشراقيون

الأخلاق انحرافاً، ويئس من الجلد. إنهم ينظرون إلى الأخلاق الثابتة على أنها سدود عالية وحواجز ضخمة تمت إقامتها على مدى التاريخ الإنساني حاملةً الأغلال المنوعة التي لا تقبل الكسر تحت اسم الأخلاق المطلقة، وهو شيء يمثل المشكلة الأساسية بالنسبة للإنسان في وضعه العادي.

ب) المناقشة:

1) أن فكرة العلاقات الخارجية واعتبارها بديلاً عن الإرادة الحرة تنتهي إلى الاضطراب؛ لأن العلاقات الخارجية لها مردود داخلي يؤثر على طبيعة الإنسان الميال إلى الاجتماع والتآلف، كما أن العلاقات الخارجية قد تكون أساسية من ناحية القيام بها وتوظيفها، وذلك ما تقوم عليه المعارف الأخلاقية العملية، ولا تحقق ذلك فكرة العلاقات الخارجية.
2) أن فكرة انتهاء البحث المعرفي إلى وحدانية العالم أو واحديته أكدت على وجود علاقات ثابتة ضرورية، كما أن فكرة العالم المتعدد تفتح الباب للإنسان كي يمارس حريته ويعبر عن إرادته، وذلك يقضي على فكرة العلاقات الخاجية[1]. وقد اعترف جيمس نفسه أن وجود العلاقات الخارجية العرضية في العالم يسهم في إطلاق القوى الكامنة في النفوس، وهذا من شأنه دفع عملية البناء الحضاري للأمام فكيف تكون قيداً على الأخلاق المطلقة[2]؟

أضف إلى ما سبق أن التعدد مهما كان أمره من اليقين أو الاحتمال لا يعد حقيقة علمية؛ بل مجرد فرض قد تقع له الملاءمة أكثر من غيره، وعندها تبقى فكرة وجود الخير والشر على نسبة واحدة، أي أن البراجماتيون - بناءً على فكرة العلاقات الخارجية - لم يستطيعوا تحويل العالم إلى خير كله أو شر كله، كما أن هذه الفكرة لا تتكامل مع فكرة الإرادة الحرة عندها لابد أن تظهر فكرة

ومنهم السهروردي، والبراجماتية يتمسكون بالصور الشبحية وذلك مما دعاهم إلى القسوة على الأخلاق الثابتة المطلقة.

[1] بيكر، ادوارد (1998)، الفلسفة الحديثة والمعاصرة، تحقيق: رجب صادق، دار الجيل، بيروت، ص: 147.

[2] جيمس، وليم، البراجماتية، مصدر سبق ذكره، ص: 311-314.

ثالثة مشتركة تنتهي إلى ضرورة تحمل الإنسان مسؤوليته التي يدفعه ضميره الأخلاقي إلى المحاسبة إن قصر فيها؛ بل يسقط من وضعه الأخلاقي على المدى القريب.

ويبدو لي أنه فكرة الخير والشر نظر إليها البراجماتيون نظرةً أبعد عن الحقيقة، يقول جيمس «افرض أن مؤلف العالم وضع القضية أمامك قبل أن تتم عملية الخلق وقال لك سأضع عالم غير متأكد من خلاصه، عالماً كماله يكون مشروطاً فقط، والشرط أن كل محركٍ متعددٍ يؤدي مستوى خاص به على نحوٍ أحسن[1]، وأنا أمنحك فرصة الاشتراك في هذا العالم فسلامته كما ترى ضمان لهما، إنها مغامرة حقيقية وذات خطر حقيقي، إنه مشروع اجتماعي من العمل التعاوني الذي يتم إنجازه بإخلاص»[2].

أخلص مما سلف إلى أن البراجماتية ينتهون إلى إنسانية الأخلاق التي مصدرها الإنسان ونسبيتها أيضاً، وأنها إذا جاءت من المثل العليا لا يمكن تطبيقها، وهذا ما دعا البعض إلى القول بأن الأخلاق إنسانية النشأة والموضوع والهدف، وإذا خرجت عن هذا الإطار ارتطمت بأرض بعيدة القرار لا تقدم نفعاً ولا تحقق هدفاً[3]. وعلى كلٍ ستبقى البراجماتية محل جدل، وسيبقى الصراع معها طويلاً مادامت الأفكار التي تتبناها تسعى لفرضها على الآخر دون أن يكون لها رصيد من معرفة صحيحة.

۞ ۞ ۞

الخاتمة

يعتبر الحديث عن الجوانب المعرفية التي انتهى إليها الباحث بمثابة اعتماد للمقدمات التي طرحها، وتقوم هذه وتلك في ثلاثة:

---

[1] هذا الفرض الذي قال به جيمس ينتهي تماماً إلى القضاء على فكرة بقاء الخير والشر، فليس العالم كله خير وليس كله شر، وإنما فيه خير وفيه شر، وتلك سنة إلهية.

[2] جيمس، وليم، مصدر سبق ذكره، ص: 338.

[3] بلانت، جورج (1998)، البراجماتية والفكر الأنوي، تحقيق: عادل فوزي، دار المعرفة، بيروت، ص: 135.

أولاً/ أهم النتائج:

1) أن الفكر الإنساني حلقات يتكامل بعضها مع بعض عند انسجامها بحيث يبقى حبل المعرفة قوياً، أما إذا لم يقع بينهما التكامل فإن عُراها تنقد ولا يكون لها من عصمة، وذلك مما يجري في الفكر الإنساني على وجه العموم، والبراجماتية واحدٌ من هذا النسيج الإنساني، فإن تساوت الأفكار مع بعضها قُبلت وإلا أنكرت.
2) أن الفكر البراجماتي نما في عقول أصحابه نمواً غير مطّرد أدى إليه العديد من التفاعلات غير المتناسقة، وبالتالي اعتنق بعضه الأفكار التجريبية وبعضه الآخر التجارب النفسية ومال ثالث إلى الأفكار الإلحادية فلم تستقم جوانبهم على قاعدة معرفية.
3) أن النزعة الإلحادية التي سرت بين أجزاء الفكر البراجماتي دفعت بهم إلى الهاوية، فجعلتهم ينكرون وجود الله مرة، ويقبلون وجوده مرة، يصفونه بالكمال مرة وبالشرور أخرى، وقد ترتب على ذلك أن وصف الإنسان عندهم بما وصف به الله فهو خيّر تارةً وشرير أخرى، أخلاقي إيجابي حيناً وصاحب نزعة غير إيجابية أحياناً كثيرة، وبالتالي أثر على القضايا التي تعرضوا لها.
4) أن موقفهم من الإنسان واعتباره خالقاً لإرادته الحرة نتج عنه فوضى أخلاقية، حيث أعلنوا تخلصهم من الأخلاق المطلقة والتزامهم الأخلاق النسبية فاصطدموا بأرض الواقع، ولم يجدوا مكاناً لهم في العقول الراقية، وهنا حدثت مآسٍ عانوا منها فكرياً ومجتمعياً، ويكفي أن كثيراً منهم عاشوا في عزلة، وماتوا دون أن يشعر بهم أحد.
5) أن إحالتهم الأخلاق في مصدرها إلى الإنسان يؤكد الجانب السوفسطائي المتمدد من اليونانيين الأقدمين إلى الفلاسفة المحدثين، ثم دعاة البراجماتية المعاصرين، وبناءً عليه فلم تكن لهم أفكار استقلالية، كما لم توجد لديهم

نزعة إبداعية، وهذا في حد ذاته من السمات التي وقع فيها كثيرون من الفلاسفة المعاصرين على وجه الخصوص.

6) أن فكرة الإرادة الحرة تنازعها فكرة الجبرية المتوسطة، وتنافيها الجبرية المطلقة، وإذا كان العالم كله تسوده الجبرية المطلقة في العلويات والسفليات، وتسوده الجبرية النسبية فيما يتعلق بالقضاء والقدر، فإن القول بالإرادة الحرة المطلقة لا يجد سنداً يدعمه؛ لأنه ينتهي إلى القول بأن الإنسان مشارك الله في فعله.

7) أن فكرة العرضية التي قالوا بها في العلاقات الخارجية تتسم بالغموض وتنتهي إلى اللامعقول إذا طبقت على الأخلاق العملية، وهذا يؤدي إلى انهيار الفكر الأخلاقي كله، وبه تضيع المدارس الأخلاقية، فلا يوجد التزام ولا إلزام، ولا يوجد واجب خُلُقي، وبهذا تنتهي الإنسانية إلى غابة من الحيوانات المفترسة قانونها القوي يلتهم الضعيف والعاجز لا وجود له، وذلك مخالف للطبيعة البشرية قدر ما هو مخالف للسنن الإلهية.

ثانياً/ أبرز التوصيات:

1) إزاحة القداسة عن الأفكار التي لا تقوم على قواعد علمية صحيحة ومنها البراجماتية طبقاً لقاعدة أن الرجال يعرفون بالحق ولا يعرف الحق بالرجال.

2) دراسة الأفكار الفلسفية المعاصرة منزوعةً عن أسماء أصحابها طبقاً لقاعدة منهجية؛ لأن الفكر الصحيح يدافع عن نفسه ويريح المطالع له، أما غيره فهو مدعوم بسلطة تراثية.

3) الاهتمام بالإطار الفلسفي من خلال النظريات الأساسية وعلى الأخص نظرية المعرفة ثم القيم؛ لأن البناء الأخلاقي قيمي في حد ذاته، ومعرفي في أصوله ومقدماته، فمن لم يعرف الخير كيف يُقبل عليه، ومن لم يعرف الشر كيف يتجنبه؟.

4) العناية بالفكر الفلسفي والقواعد العامة واعتبارها مشاريع معرفية تنال حظها من الدراسة المتأنية شأنها شأن العلوم الأخرى حتى إذا أقبل عليها الباحث كان على علمٍ بمتطلباتها.

ثالثاً/ أهم المقترحات:

تقترح الباحثة تكملة لبحثها القيام بدراسة المواضيع الآتية:

1) تقييم الفكر البراجماتي على ناحية تجريبية.
2) وضع الإطار البراجماتي في الصور الاختبارية.
3) خطر البراجماتية على العقيدة الإلهية.
4) موقف البراجماتية من الدين والإله (دراسة تنظيرية).
5) فكرة المطلق بين البراجماتية وكانط.
6) أثر الفكر السوفسطائي على البراجماتية.
7) دور الإعلام في دعم الفكر البراجماتي (دراسة تحليلية).

وحيث تناولت ما سلف فإني أسأل الله العلي القدير التسديد.

المصادر والمراجع

ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب (د.ت). تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تحقيق: محب الدين ابن الخطيب، المطبعة العصرية، القاهرة، مصر.

أبو النصر، فوزي؛ والخياط، محمود (1998). الفلسفة المعاصرة ودورها في المعرفة، دار المنتزه، القاهرة، مصر.

أفلاطون (1945). محاورات أفلاطون: أوطيفرون، تحقيق: زكي نجيب محمود، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، مصر.

الخياط، محمود صبري (1998). فلسفة الأخلاق في الفكر البراجماتي، مكتبة المتنبي، القاهرة، مصر.

الزعفراني، فيصل (1995). البراجماتية من منظور براجماتي، دار الوزان.

الطويل، توفيق (1979). أسس الفلسفة، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر.

النعماني، علي محمد (1986). المذاهب الأخلاقية، مطبعة السعد، القاهرة، مصر.

إمام، إمام عبد الفتاح (1978)، فلسفة الأخلاق، طبعة القاهرة.

أمين، أحمد (د.ت) كتاب الأخلاق، طبعة القاهرة.

برجسون، هنري (1988). مقدمة البراجماتية، تحقيق: عادل فوزي، مراجعة: فوزية حسن، طبعة القاهرة.

بلانت، جورج (1998). البراجماتية والفكر الأنوي، تحقيق: عادل فوزي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

بيرس، استوارت (د.ت). البراجماتية والقيم الأخلاقية، تحقيق: ناهد شكري، طبعة القاهرة.

بيري، وليم (1978). الفكر الفلسفي المعاصر في الميزان، تحقيق: عدلي حسن صابر، دار الجيل، بيروت، لبنان.

جيرار، ادوارد (1993). البراجماتية والمذاهب الأخلاقية: دراسة نقدية، تحقيق: عليا صالح، طبعة بيروت.

جيمس، وليم (د.ت). البراجماتية، تحقيق: محمد علي العريان، طبعة القاهرة.

خضر، توفيق (1985). قوانين الفكر الأساسية ومدى توظيفها فلسفياً، مكتبة المهند، القاهرة، مصر.

ديوكان، تشارلز (1998). الفلسفة في القرن العشرين، تحقيق: عادل فوزي، طبعة بيروت.

زاهر، رفقي (1983). أضواء على الفلسفة الحديثة والمعاصرة، الدار المحمدية، القاهرة، مصر.

رجب، منصور علي (د.ت). تأملات في فلسفة الأخلاق، طبعة القاهرة.

زومو، اسكندر (1987). الحركة البراجماتية والتطورات العلمية، دار الصفا، القاهرة، مصر.

سلطان، محمود حسن (1995). البراجماتية، طبعة دار بيروت.

سليمان، حسن محمود (1993). الأخلاق النظرية وموقف الفلسفة المعاصرة منها، طبعة القاهرة.

شيفر، ادوارد (1995). قراءات في الفلسفة البراجماتية، تحقيق: حسام طلبة، طبعة بيروت.

شيللر، ادوار (د.ت). البراجماتية من منظور نفعي، تحقيق: حسن طلبة، دار الجيل، بيروت، لبنان.

صقر، محمود (1985). الأخلاق بين النظرية والتطبيق، طبعة القاهرة.

عزب، شوكت محمد (1998). الأخلاق في المنظور الفلسفي، مكتبة المتنبي، القاهرة، مصر.

عمران، محمد (1986). الفلسفة المعاصرة وموقفها من الأخلاق، طبعة القاهرة.

فضل، صبري محمد (1985). دور الإرادة الحرة في البناء الأخلاقي، ط الأولى، دار المشرق، بيروت، لبنان.

فوزي، محمود (1985). المذهب البراجماتي نشأته وتطوره، طبعة القاهرة.

فوكر، جورج ساندر (1993). المذهب الفلسفية في أمريكا الحديثة، تحقيق: حنان فوزي، طبعة بيروت.

فيشر، جورج (1998). الفكر الفلسفي الحديث، تحقيق: عادل آغا، طبعة بيروت.

قاسم، محمود (1973). المنطق الحديث ومناهج البحث، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر.

كرم، يوسف (1979). تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، القاهرة، مصر.

مزروعة، محمود محمد (1978). دراسات في علم الأخلاق، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، مصر.

مصطفى، عدلي محمد (1998). سياحة في الفلسفة البراجماتية، دار الجبل، بيروت، لبنان.

ميدن، جورج (1975). الكون وحركة الحياة، تحقيق: هناء فوزي، طبعة القاهرة.

نصر، فوزي (1983). ديوي وأفكاره الفلسفية، طبعة القاهرة.

هيث، إدوارد (1974). زعماء الفلسفة البراجماتية، تحقيق: هناء فوزي، طبعة بيروت.

هيدل، جورج (1985). الفكر الفلسفي والجوانب الأخلاقية، تحقيق: هناء ظافر.

هيفر، إدوارد (1987). الفلسفة الحديثة والمعاصرة، تحقيق: هناء خالد، طبعة بيروت.

هيفر، جورج (د.ت). الفلسفة الحديثة والمعاصرة من ديكارت إلى وليم جيمس، تحقيق: وفاء صبري، دار المفكر، بيروت، لبنان.

Pragmatic Ideas of Ethics: Presentation and Discussion

Abstract

Since the contemporary philosophy stance has negative consequences on both theoretical and practical ethics, the present article aims at studying the unobjective stance of contemporary philosophy from ethics. Also, the study aims at reviewing the right and wrong pragmatic ideas. The descriptive method was utilized in conducting this study as well as the pragmatic ideas were presented, discussed and criticized to achieve the research aims. The study results refer that Pragmatics' view of morals depends on sophistical view which spanning from the ancient Greek to contemporary philosophy, and contemporary Pragmatic. In addition, Pragmatics' attitude towards human beings' moral values lead to moral chaos where they do not believe in absolute moral values.

Keywords: Free will, External relations, Human freedom, Human values, Concept of ethics.